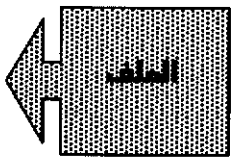

وحدة الامة الاسلامية

المشاركون:

أ. د. يوسف القرضاوي

أ. د. جمال أحمد آبادي

أ. د. ناصر يوسف

أ. د. يوسف القرضاوي
رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

المؤلف

التعدّدية في نظر الإسلام

وحدانيّة الخالق

يقوم التصوّر الإسلامي للوجود على حقيقتين أساسيتين:

الحقيقة الأولى: هي وحدانيّة الخالق. والحقيقة الثانية: هي تعدّدية الخلق.

على هذين الأساسين بنى الإسلام تصوره وعقيدته وفكرته عن هذا الوجود، الله وحده هو الواحد، وما عداه متعدد، هو واحد في ذاته، وواحد في صفاته، وواحد في أفعاله، هو الخالق وحده، والمحيي والمميت وحده، وهو المعبود وحده، فلا يستحق العبادة غيره، ولا الاستعانة سواه (إياك نعبد وإياك نستعين) (الفاتحة/٥) (قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد) (سورة الإخلاص).

ولهذا كان التوحيد في الإسلام هو جوهر هذا الدين، وهو أساس هذا البناء كله، التوحيد روح الوجود الإسلامي (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم: ألاّ نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله) (آل عمران/ ٦٤). وهذه كانت دعوة الأنبياء والمرسلين جميعاً، كلّ

الرسل دعوا قومهم إلى التّوحيد (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) (النحل/ ٣٦) والطاغوت: كلّ ما يُعبد ويُعظم ويُطاع طاعة مطلقة من دون الله، سواء كان من البشر أم من غير البشر.

لقد حرّر الإسلام البشريّة من عبادة غير الله؛ من عبادة الأشياء، أو عبادة الذوات: عبادة الأشخاص، أو عبادة الأفلاك، أو عبادة الحيوان، أو عبادة الإنسان، أو عبادة الهوى والذات، وبكلمة موجزة: تحرير البشر من العبوديّة لغير الله.

كانت رسالة الأنبياء جميعاً التي تركّزت وتجسّدت في الدين الخاتم – الذي بُعث به محمد(ص) - أن ينعم الناس بظلال الحريّة، ويتنسموا نسيمها، فقد كان يعبد بعضهم بعضاً، ويذلّ بعضهم لبعض، ولذلك رفع الإسلام الجباه أن تسجد لغير الله، والظهور أن تطاطىء لغير الله، فلا انحناء إلاّ لله راكعين، ولا تعفير لجبهة إلاّ لله ساجدين، وكانت رسائل النبي(ص) إلى قيصر الروم وغيره من أمراء النصارى، تدعوهم إلى هذا التحرّر، ويختمها بالآية الكريمة (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم: ألاّ نعبد إلاّ الله، ولا نشرك به شيئاًولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا: بانّا مسلمون) (آل عمران / ٦٤) هذه هي الحقيقة الأولى.

تعدّدية الخلق

والحقيقة الثانية – بعد وحدانيّة الخالق وهي المقصودة بالحديث – هي: التعدّدية، التعدّدية في الخلق، والتعدديّة العرقيّة، والتعدديّة اللسانيّة، والتعدديّة الدينيّة، والتعدديّة الثقافيّة، والتعدديّة الحزبيّة، كلّ هذه التعدديّات شرعها الإسلام، أنت لست وحدك في هذا الوجود، لست إلهاً حتى تكون متوحداً: لا شريك لك، ولا نِدّ لك، ولا كفؤ لك، ولا شبيه لك، ولا هناك آخرون يشاركونك، وينبغي أن يفهم الناس هذه الحقيقة، انّ هناك تعدداً.

هناك تعدد في الأجناس والعناصر، والله تعالى يقول: (يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم) (الحجرات/ ١٣) خلقناكم من ذكرٍ وأنثى، كلكم أبناء آدم وحواء، وكلكم أبناء رجل وامرأة، وجعلناكم شعوباً وقبائل، هذا الشّعب العربي، وهذا التركي، وهذا الشّعب الهندي، وهذا الشّعب الأفغاني، وهذا الشّعب الفارسي، شعوباً وقبائل لتعارفوا، لتتفاهموا ولتتعاونوا، لا تتناكروا ولا تتصادموا ولا تتعادوا، هكذا خلق الله البشر عروقاً وأجناساً كلها تنتمي لأب واحد هو آدم، وتنتمي لربّ واحد هو الذي خلقها وسواها، هو الله عزّوجلّ، وهذا ما عرّفه النبي(ص) للألوف المؤلّفة في حجة الوداع حينما قال: «أيها الناس: إنّ ربكم واحد، وإنّ أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب»[1].

لابدّ أن يعترف الناس بأنّ هناك عروقاً وأجناساً مختلفة، وليس لجنس سيادة على جنس، كما يدعي اليهود: أنّ الجنس الإسرائيلي هو شعب الله المختار، وعليه أن يسود العالم.

أو كما اعتقد بعض فلاسفة اليونان: أنّ الناس يتفاوتون بحكم الخلقة، فمنهم شعب خلق ليسود ويقود ويحكم، وشعوب أخرى خلقت لتقاد وتُساق وتُحكم، هناك سادة، وهناك عبيد.

أو كما اعتقد الآريون الأوربيون في وقت من الأوقات، مثل هتلر وغيره: أنّ الجنس الآري هو سيّد الأجناس، لابدّ أن يحكم العالم!

أو كما اعتقد رينان وغيره من الفلاسفة المُحدَثين: أنّ الأجناس تتفاضل، فهناك جنس أفضل من جنس، وعرق خير من عرق.

لا، فهذه المقولات مرفوضة في نظر الإسلام، إنّ الإسلام يقول: الناس سواسية كأسنان المشط، متساوون في العبودية لله، والبنوة لآدم. إنما يتفاوت الناس بالعلم والعمل والإحسان (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)

(الزمر/٩) (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) (النساء/ ٩٥)، (قل لا يستوي الخبيث والطيّب ولو أعجبك كثرة الخبيث) (المائدة/ ١٠٠) (إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم) (الحجرات/ ١٣) الناس تتفاوت بعلمها، وبأعمالها، وبتقواها، وبفضائلها، وبما تقدّمه للناس من خيرات وصالحات.

الأجناس كلها متساوية ويجب أن يسع بعضها بعضاً، لا يحاول جنس أن يطغى على جنس، فضلاً عن أن يُبيد جنس جنساً آخر، كما رأينا الأوربيين عندما ذهبوا إلى أمريكا، أرادوا استعباد الجنس الأصلي الذي يسكن البلاد (الهنود الحمر)، وقامت مذابح إبادة هائلة.

وكذلك عندما دخلوا أستراليا: اعملوا سيف الإبادة في أهلها الأصليين! وحينما دخلوا بلاداً شتّى حاولوا أن يبيدوا عناصر أخرى وأجناساً أخرى! ليس من حقّ جنس أن يحكم على جنس بالإبادة. هذا خلق الله، لهم حقٌّ في الاستخلاف في هذه الأرض وعمارتها، كما لهم حقوق في العيش عليها.

بل إنّ رسول الإسلام ليعلن هذه الحقيقة الكبرى: «لولا أنّ الكلاب أمّة من الأمم لأمرت بقتلها»[٢]. حتى أمم الحيوان لا ينبغي أن تباد، وإن كانت تؤذي الإنسان أحياناً، والرسول هنا يشير إلى الحقيقة القرآنيّة التي سجّلها القرآن في قوله تعالى: (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أمم أمثالكم) (الأنعام/ ٣٨).

التعدديّة اللسانيّة واللغويّة

هناك التعدديّة العرقيّة، وهي حقيقة من الحقائق، وهناك التعدديّة اللسانيّة: أنّ الله خلق الناس تختلف ألسنتهم ولغاتهم، بموجب عوامل شتّى، القرآن يقول: (ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات

للعالمين) (الروم/ ٢٢) هذا يتكلم بالعربيّة، وهذا بالفارسيّة، وهذا بالهنديّة، والهنديّة فيها مئات اللغات، وهذا يتكلم بالتركيّة أو بالسواحليّة، وهذا بالإنجليزيّة، وهذا بالفرنسية.. إلخ فالناس يتكلمون بلغاتهم (وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبين لهم) (إبراهيم/٤) حتى الرسالة العالمية – رسالة الإسلام، ورسالة القرآن – جاءت بلسان عربي مبين، كيف نبلغها إلى العالم؟ نترجم إلى العالم مضامين هذه الرسالة حتى يعرفوها، ولكن لابدّ أن نعترف أنّ هناك لغات شتى، وألسنة شتى مختلفة يتحدّث بها الناس، وهذه آية من آيات الله عزّوجلّ، هناك تعدديّة لسانيّة ولغويّة. ولا ينبغي لأحد أن يضيق بلغة غيره، أو يحاول أن يضيّق عليها، أو يتعصب ضدّها، أو يفرض على أهلها بالقوّة ترك لغتهم.

التعدديّة الدينيّة

وهناك تعدديّة دينيّة. فإنّ الله سبحانه وتعالى خلق الناس مختلفين، خلق لكل منهم عقلاً يفكّر به، ومنحه الإرادة ليرجح بها، ومنحه ملكات وقوىً ومواهب مختلفة، على أساسها اختار الناس لأنفسهم. ولو شاء الله أن يجعل الناس كلهم مؤمنين به لفطرهم على التوحيد والإيمان كما فطر الملائكة، ولكن الله خلق من خلقه خلقاً مفطورين على عبادته: (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) (التحريم/ ٦) (يسبّحون الليل والنهار لا يفترون) (الأنبياء/ ٢٠) وهؤلاء هم الملائكة.

وخلق من خلقه نوعاً ميَّزه بالإرادة والاختيار، هو الذي يقرّر مصير نفسه (فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنما يضل عليها) (يونس/ ١٠٨)، (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها) (فصلت/ ٤٦) (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (الكهف/ ٢٩) (لمن أراد أن يذكّر أو أراد شكوراً) (الفرقان/ ٦٢)

أعطاه المشيئة والإرادة والاختيار والقدرة ليقرّر مصيره، هذا النوع هو الإنسان، لم يشأ الله أن يجبره على دين واحد، وعلى الإيمان به، بل ترك له الحريّة، أعطاه الأدوات التي يفكّر بها، وبعث له الرسل، وأنزل له الكتب، لتعاونه في اختيار الطريق، ولكنه ترك له الحريّة، هكذا خلق الله الناس (ولو شاء ربك لجعل الناس أمّة واحدة ولا يزالون مختلفين. إلاّ من رحم ربك ولذلك خلقهم) (هود/١١٨، ١١٩) قال كثير من المفسرين: لذلك أي لاختلاف خلقهم، ولأنه خلقهم متغايرين في الفكّر والإرادة، فلابدّ أن يتغايروا في الدين الذي يختارونه، (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) (يونس/ ٩٩) وهذا استفهام إنكاري معناه: أنه لا يجوز أن يكره الناس على شيء، ولو كان هو الإيمان. فمن عهد سيدنا نوح قال لقومه: (أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) (هود/ ٢٨) أنلزمكم بالهداية رغم أنوفكم؟ لا، أنتم أحرار فيما تختارون لأنفسكم.

خلق الله الناس مختلفين، فلا عجب أن يكونوا على أديان مختلفة، ولهذا يجب أن يسع أهل الأديان بعضهم بعضاً، ولا يُجبر أناس على أن يتركوا دينهم ليعتنقوا ديناً آخر (لا إكراه في الدين قد تبيّن الرّشد من الغي) (البقرة/ ٢٥٦) ولذلك ينبغي أن نسع المخالفين، ولا يجوز لنا أن نقهرهم على أن يتبعوا ديننا. وكما لا نجيز لأحد أن يقهرنا على ترك ديننا، أو يمنعنا من طاعة ربنا، لا يجوز لنا أن نتدخل في دين أحد، أو نضطهده ونؤذيه حتى نكرهه على تغيير دينه، فهذه هي (الفتنة) التي اعتبرها القرآن (أشد من القتل) و(أكبر من القتل وأمر بالقتال لمنعها (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله) (البقرة/١٩٣).

هذه التعدديّة الدينية هي التي قرّرها الإسلام منذ العهد المكي والعهد المدني، هناك سورة جمعت بين أمرين قد يظنهما بعض الناس متناقضين:

الاعتزاز بالدين إلى أقصى حدّ، والتسامح في الدين مع المخالف إلى أقصى حدّ، هذه السّورة هي سورة (الكافرون)، السّورة الوحيدة التي خاطب الله فيها الكافرين بعنوان الكافرين، فالله عزّوجلّ يخاطب الكافرين عادة بـ: (يا أيها الناس) (يا عبادي) (يا بني آدم)، ولكن قال في هذه السّورة: (قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين) (سورة الكافرون).

كان المشركون يساومون النبي(ص) ويفاوضونه، يريدونه أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدون إلهه سنة، أي ليجرب كل منّا دين الآخر! هذه المساومات أراد القرآن أن يقطعها بقرار حاسم، فهذا أمر مرفوض، ولذلك قال (لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد. ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد) هذا التكرار والتأكيد مقصود، لتثبيت النبي والمؤمنين على دينهم والتشبّث به، والاعتزاز به إلى آخر مدى، وفي آخر السّورة يأتي هذا التسامح العجيب: (لكم دينكم ولي دين)، الحياة تتسع لي ولكم، وإن اختلفت أديانا. لكن المشركين المتعصبين قالوا له: لا، لنا ديننا، وليس لك دينك! وهذا هو التعصّب بعينه، أن تثبت نفسك، وتنفي من عداك.

ولذلك خطات بعض الأخوة الذين يقولون: لا دين غير الإسلام، مستدلين بقوله تعالى: (إنّ الدين عند الله الإسلام) (آل عمران/ ١٩)، لا مانع أن تعتقد أنّ دينك هو الحقّ، فكل مؤمن بدين يعتقد أنّ دينه وحده هو الحقّ، ولا يلام على ذلك.

ومع هذا نقول: هناك أديان أخرى، يؤمن بها أصحابها، حتى دين المشركين الوثنيين، فالله قال لهم على لسان رسوله: (لكم دينكم ولي دين) كذلك أهل الكتاب لهم دينهم (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحقّ)

(النساء/ ١٧١) (لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا (المائدة/ ٧٧).

هناك أديان أخرى وسعها الإسلام، وعاشت في ظلال الإسلام قروناً: عاشت النصرانيّة، وعاشت اليهوديّة، وعاشت المجوسيّة، وعاشت الهندوسيّة، وغيرها من الديانات. والمسلمون كانوا هم سادة العالم، ولهم القوة الأولى في الدنيا، وكانوا يستطيعون أن يفرضوا عليهم دينهم، وأن يقهروهم على الإسلام، لكن لم يحدث ذلك أبداً، لأنّ الإسلام لا يقبل إيماناً فيه شائبة إكراه، الإيمان لابدّ أن يكون اختياراً حرّاً محضاً، ولذلك لم يجبر غير المسلمين في وقت من الأوقات على دخول هذا الدين، وهذا ما قرّره المستشرقون الغربيون أنفسهم مثل: توماس أرنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) الذي قال: لم يحدث في تاريخ المسلمين أنّ جماعة أجبرت على أن تدخل في الإسلام إكراهاً أبداً.

كان هؤلاء يعيشون في بلاد المسلمين كأهل ذمّة، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، لهم كنائسهم، ولهم صلبانهم، ولهم نواقيسهم، ولهم أزياؤهم، ما أجبر أحد على أن يغيِّر زيَّه ليكون مثل المسلمين، بالعكس قيل: إنهم أمروا أن يلزموا زيهم ولا يغيروه، وحتى هذا غير ثابت. فالإنسان له حريّة الاختيار ما دمت تركت له دينه، فمن حقّه أن يعيش بدينه، وأن يقيم شعائره، وأن يؤدي واجباته.

بل من عجائب التسامح الإسلامي: أنه لا يجبر الإنسان على أن يترك مباحاً له في دينه – وهو محرم عند المسلمين – ليجامل المسلمين بتركه، لم يجبره على أن يترك أكل الخنزير أو شرب الخمر، وسمح للنصارى في بلاده أن يعيشوا فيها وهم يشربون الخمر، ويربون الخنازير، ويأكلون لحومها وهو أمر مباح في دينهم، وليس واجباً عليهم! حتى أنّ من أراق خمراً لذميٍّ يُغرم قيمتها، كما يرى الإمام أبي حنيفة وأصحابه، وهي في نظر المسلمين جميعاً: أم الخبائث

ورجس من عمل الشيطان!

هذا هو التسامح الحقيقي، التعدديّة الدينيّة تحتاج إلى التسامح، كيف يتسامح الإنسان وهو يعتقد أن دينه هو الحقّ، وأن غيره هو الباطل وأن (الدين عند الله الإسلام) (آل عمران/ ١٩) (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) (آل عمران/ ٨٥) لو كان يعتقد هذا كيف يتسامح مع غيره؟! هذا يحتاج إلى بيان، فقد يلتبس على كثرين.

مفاهيم تعين المسلم على التسامح

من روائع ماجاء في الإسلام: أنّ المسلم برغم اعتزازه بإسلامه (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين) (فصلت/٣٣) رغم اعتزازه بالإسلام، ومباهاته بالإسلام، ومغالاته بالاعتزاز بهذا الدين، رغم هذا فقد غرس فيه الإسلام من العقائد والمفاهيم والأفكار مايجعله يتعايش بتسامح منقطع النظير مع المخالفين له.

الاختلاف واقع بمشيئة الله

١ـ أوّل هذه المفاهيم الأساسيّة: انه علّمه أنّ اختلاف الناس واقع بمشيئة الله (هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) (التغابن/ ٢) هكذا خلق الله الناس، وأن هذا بمشيئة الله (ولو شاء ربك لجعل الناس أمّة واحدة) (هود/ ١١٨) ومادام هذا من مشيئة الله التي لا تنفصل عن حكمته، فلا يُعقل أن يقاوم الإنسان مشيئة الله، لأنّ مشيئة الله هي النافذة، وهي الغالبة، فما شاء الله كان، وما لم يشا لم يكن. ولهذا استراح المؤمن حين أيقن: أنّ هذا هو ما يشاؤه الله، هل سنُعدِّل على الله خلقه أو كونه، وقد خلقه هكذا؟! وهو الذي أحسن كل شيء خلقه؟!

حساب الناس موكول على الله وحده

٢- الأمر الثاني: أنّ الناس إذا اختلفوا، آمنوا أو كفروا، اهتدوا أو ضلوا، صلحوا أو فسقوا، ليس حسابهم في هذه الدار، وإنما هناك دار أخرى للحساب والجزاء، والذي يتولى الحساب والجزاء فيها هو: الله عزّوجلّ، وهذا يطمئننا، فإنّ الذي يجزي الجميع رب عادل لا يظلم أحداً. يقول القرآن (وإنّ جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون. الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون) (الحج/ ٦٨،٦٩) (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم، الله ربنا وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا حجّة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا وإليه المصير) (الشورى/ ١٥) (إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إنّ الله يفصل بينهم يوم القيامة إنّ الله على كل شيء شهيد) (الحج/ ١٧).

احترام آدمية الإنسان

٣- الأمر الثالث: أنّ الإسلام يكرم الإنسان من حيث هو إنسان، فالإنسان من حيث آدميته مكرم في هذا الدين (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيّبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) (الإسراء/ ٧٠) فأسبغ الله على الإنسان نعمة ظاهرة وباطنة، وجعله خليفة في الأرض، فالإنسان هو زبدة هذا الوجود، وهو الذي كرّمه الله عزّوجلّ بغض النظر عن لون عينيه، أو نعومة شعره أو جعودته، أو كون لونه أبيض أو أسود، أو شكل أنفه كيف هو؟

الإنسان مكرّم عند الله من حيث هو إنسان، بغض النظر عن لونه أو عرقه أو طبقته، بل عن دينه، روى الشيخان في صحيحيهما: أنّ النبي (ص) مرّوا عليه

بجنازة، فقام لها واقفاً، فقالوا: يا رسول الله إنها جنازة يهودي! قالوا ذلكم متعجبين من قيامه واحترامه لها، وهي ليست لمسلم! فقال(ص) «أليست نفساً؟!»[٢]. أليست نفساً بشريّة، فما أروع الموقف، وما أروع التعليق! النفس البشرية مكرمة معصومة مصونة في الإسلام (أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً) (المائدة/ ٣٢) هذا هو الأمر الثالث الذي يمحو به الإسلام التعصب من نفسيّة المسلم، ويغرس فيها التسامح والأفق الواسع.

الإنصاف والعدل مع الجميع

٤- الأمر الرابع: أنّ الإسلام يأمر بالعدل مع الناس جميعاً، مع من تحب، ومع من تكره، مع القريب والبعيد، مع الصديق والعدو، مع المسلم والكافر، مع المسالم والمحارب، العدل للناس جميعاً، هذا هو عدل الله لكل عباد الله، وهذا ما ينبغي أن يراعيه المسلم، يقول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) (النساء/ ١٣٥) هذا عدل مع من تحب.

ويقول في الآية الأخرى: (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألاّ تعدلوا) (المائدة/ ٨) لا يحملنكم شنآنهم يعني: شدة بغضهم لكم، أو شدة بغضكم لهم، لا يحملنكم هذا على ألاّ تعدلوا (اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله) (المائدة/ ٨)، هذا هو العدل مع من نكره، إنه العدل مع الجميع.

ولّما حاول اليهود أن يَرْشُوا سيدنا عبدالله بن رواحة، وهو يُقدِّر مايجب عليهم في النخيل، وكان قد عاملهم النبي(ص) على أن يزرعوا الأرض ويعطوا

النبي النصف ولهم النصف، وكانت طريقتهم: خرْص النخيل، يعني تقدير ثمر النخيل تقديراً تقريبياً، بالتقريب كم تحمل النخلة، وكان الرسول(ص) يترك لهم الحريّة في الأكل من النخيل أو التصرّف فيه بعد الخرص. ووكّل النبي(ص) أمر هذا التقدير للخبراء، وكان من هؤلاء الخبراء: سيدنا عبدالله بن رواحة، فأراد اليهود – على طريقتهم – أن يرشوه حتى يقلّل مايجب عليه من ثمر النخيل، فقال لهم: يا أعداء الله ترشونني! والله لأنتم أبغض إليَّ من القردة والخنازير، ولرسول الله أحب إليّ من نفسي، ولكني والله لا أحيف عليكم مثقال ذرة! فقالوا: هذا هو العدل الذي به قامت السماوات والأرض!

العدل مع الناس جميعاً، بهذا غرس الإسلام روح التّسامح مع المخالفين، فلا يضيق المسلم بمن يخالفه، يعاملهم بالعدل والرّحمة والقسطاس المستقيم، ويعلم أنّ الأرض تسعه وتسعهم.

التعدديّة الثقافية

هذه هي التعدديّة الدينيّة، والتعدديّة الدينيّة تترتب عليها تعدديّة أخرى، هي التعدديّة الثقافيّة: فما دام الناس يتعددون دينياً فلابد أن يتعدّدوا ثقافيّاً، هناك من الناحية الثقافيّة ما يتصل بالحياة ومفاهيمها، وتقاليدها، وعادات الناس فيها، الناس تختلف في هذه الأمور كلها: يختلفون في ملابسهم، ومآكلهم، ومشاربهم، ومساكنهم، لكل جماعة طريقة اتخذتها، ناس تأكل أشياء، وناس ترى هذه الأشياء سيئة جداً لا تؤكل، ناس تبني بيوتها بطريقة، وناس تبني بطريقة أخرى، ناس تتكلم بلغة وتكتبها بطريقة، والآخرون يكتبون بطريقة أخرى، هناك من يكتب اللغة بطريقة الخطوط، والحروف عبارة عن خطوط، وناس تكتبها في خطوط ونقط فوقها وتحتها كما هو شأن العربيّة. وناس تكتب اللغة بالصور، يعني حروفها عبارة عن صور مثل: اليابانيّة

والصينيّة والكوريّة. وناس تكتب من اليمين إلى الشمال. وناس تكتب من الشمال إلى اليمين. وناس تكتب من فوق إلى أسفل كتابة رأسيّة. الناس يختلفون في هذه الأمور.

والإسلام قدَّر هذا الاختلاف في ثقافة الناس، ووسع هؤلاء جميعاً، وكان في الحضارة الإسلاميّة، وفي الديار الإسلاميّة أناس من كلّ هذه الأنواع، لم يفرض على الناس لوناً معيناً من المآكل أو المشارب، تريد أن تأكل بطريقة معينة، كُلْ كما شئت، تلبس لباساً معيناً، البس كما شئت، ما فرض على الناس شيئاً من التقاليد يجب أن يفعلوه مجاراة للمسلمين حتى لا يتميزوا عن المسلمين. الناس لهم الحريّة في ثقافاتهم وتقاليدهم وأعرافهم وعاداتهم، لم يتدخل المسلمون في هذا الأمر.

تنوع الثقافات تُثري به الحضارة

والحضارة الإسلاميّة شاركت فيها أنواع عدة من العناصر والأجناس والأديان المختلفة، وكلٌّ له ثقافته، وكلٌّ ترك له (بصمة) في ناحية من النواحي، وهذا من التنوع، فالتنوع فيه إثراء وغنى للحضارات، الحضارة التي تقوم على شكل واحد ولون واحد، وصورة واحدة، هذه الحضارة فقيرة، الحضارة الغنية الخصبة: هي التي تأخذ من الجميع، وتستفيد من الجميع، وتقتبس من الجميع، هذا هو التنوع.

والتنوع ظاهرة كونيّة، أشار الى ذلك قوله تعالى: (ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماءُ) (فاطر/ ٢٧، ٢٨) العلماء هم الذين يعرفون أسرار الله في الكون، يعرفون أسرار الأنواع والأصناف، وبهذا تثرى الحياة،

وتزدهر، وهذا موقفنا نحن المسلمين: لا نفرض على الناس لوناً واحداً، ونحاول أن نبيد الألوان الأخرى، وهذه هي التعدديّة الثقافيّة.

التعدديّة السياسيّة والحزبيّة

وهناك التعدديّة الحزبيّة، التي يتحدثون عنها في الفكر السياسي والعلوم السياسيّة، وهي: أنّ الدولة لابدّ أن تسمح بتعدّد الأحزاب والجماعات السياسيّة، ولو كانت معارضة للنظام الحاكم. وهذا ما يتغنون به في النظام الديمقراطي، ويقولون: النظام الديمقراطي هو الذي يسمح بالتعدديّة السياسية والتعدديّة الحزبيّة، وهذا ما جاء به الإسلام من قديم، وترك للناس أن يعبروا عن أرائهم، وأن يخالفوا الحاكم سواء كان المخالفون أفراداً أم جماعات.

معارضة الأفراد للحاكم

يقول سيدنا أبو بكر : «إن أحسنتُ فاعينوني، وإن أسأت فقوموني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم».

وعمر بن الخطاب يقول: من رأى منكم فيَّ اعوجاجاً فليقومني، فقام بعض الناس وقال: لو رأينا فيك اعوجاجاً يا ابن الخطاب لقومناه بحدّ سيوفنا! لم يقل عمر: اقبضوا على هذا الرجل الإرهابي، ضعوه في السجون! أو ابحثوا عن مصدر السيوف التي يريد أن يقاومني بها! لم يقل هذا، بل قال: الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوِّم اعوجاج عمر بحد سيفه!

معارضة الأحزاب للحاكم

وعلي ابن أبي طالب كان يعارضه حزب، ولم يكن مجرد أفراد يعارضون، بل هو في الواقع: حزب له مبادئه وأفكاره ومنطلقاته، كان يُسمّى (حزب

الخوارج)، وهو حزب قوي ومسلح، وقامت بينه وبينهم معارك انتصر فيها عليهم، هذا الحزب له مبادئه في تكفير مرتكب الكبيرة، وفي معارضة الحكام وغير ذلك.

وحينما أراد علي (رض) أن يحاربهم، عندما قاوموه مقاومة مسلحة، أرسل إليهم قبل ذلك عبدالله بن عباس، ليناقشهم ويجادلهم ويحاججهم، بالمنطق القرآني، والمنطق الإسلامي، وقد حاجهم فحجهم وغلبهم، ورجع منهم عدة آلاف، وبقي الآخرون مصرين على رأيهم. هؤلاء قالوا لعلي بن أبي طالب: إن الحُكم إلاّ لله، يريدون: أنه خرج عن المبادئ الشرعية حينما حكّم الرجال في دين الله، في قضية التحكيم المعروفة، فرد عليهم قائلاً: كلمة حقّ يراد بها باطل. صحيح أنّ الحكم لله، أي التشريع الأعلى لله، ولكن ليس معنى هذا ألاّ يختار الناس في شؤونهم من يحكمونهم في النزاعات، إن الله تعالى شرع (التحكيم) في نزاعات أقل من هذا شاناً، فقد حكّم في الأسرة فقال: (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما) (النساء/ ٣٥) وفي شؤون الصيد في حالة الحج والإحرام: (يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة) (المائدة/ ٩٥).

ثمّ قال لهم علي أبي طالب: لكم علينا ثلاث: ١- ألاّ نمنعكم مساجد الله أن تصلوا فيها معنا. ٢- وأن نعطيكم حقكم في الفيء والغنيمة، إذا كانت سيوفكم مع سيوفنا. ٣- وألاّ نبدأكم بقتال، أي ما دمتم مغمدين سيوفكم في جراباتها وأغمادها لا نبدؤكم بقتال.

أرأيتم توسعة أكثر من هذه؟ حزب معارض وأفراده مسلحون، لأنّ الناس في ذلك الزمن بطبيعة الحال كان كل معه سلاحه، ويسمح لهم بالوجود والنشاط والمشاركة في الحياة العامّة، ما داموا مسالمين للمجتمع. ولهذا قال لهم: لن نبدأكم بقتال، ما دمتم لا تشهرون سيفاً على إخوانكم.

تصوّر غير صحيح للدولة الإسلاميّة

ربما يتصوّر بعض المخلصين أن الدولة التي تحكم بشرع الله، وترجع في كلّ أمورها إلى حكمه، لا تحتاج إلى كلّ هذا، فهي دولة ملتزمة وقّافة عند حدود الله تعالى.

فعلى العاملين أن يجاهدوا حتى تقوم هذه الدولة المنشودة: فإذا قامت كانت كما وصفها الله تعالى: (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونَهوا عن المنكر) (الحج/ ٤١).

وحينئذ عليهم أن يسلموا لها الزمام، وأن يمنحوها كامل الولاء والطاعة والتأييد.

وأحبّ أن أقول لهؤلاء: إنّ «الدولة الإسلاميّة» ليست هي «الدولة الدينيّة» التي عرفت في مجتمعات أخرى، أعني: إنها دولة مدنية تحتكم إلى الشرعية، رئيسها ليس «إماما معصوماً» وأعضاؤها ليسوا «كهنة مقدسين» بل هم بشر يصيبون ويخطئون، ويحسنون ويسيئون، ويطيعون ويعصون، وعلى الناس أن يعينوهم إذا أحسنوا، ويقوّموهم إذا أساءوا، ويرفضوا أمرهم إذا أمروا بمعصية.

كما قال أبو بكر (رض) في خطابه الأول، بل كما قال النبي(ص) «السمع والطاعة حقّ على المرء المسلم فيما أحب وكره، مالم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[٤].

وإذا انتفت العصمة والقداسة فكل الناس بشر، لا يؤمن أن تغرّهم الحياة الدنيا ويغرهم بالله الغرور، فيستبدّوا ويظلموا، وأشد أنواع الاستبداد خطراً ما كان باسم الدين، فإذا لم توضع الضوابط، وتُهيأ السبل لمنعه من الوقوع، وإزالته إذا وقع، حاق الضرر بالأمّة، وأصاب شرره الدين أيضاً.

ولهذا كان أيجاد قوى منظمة تعمل في وضح النهار، وتقدر على أن تعين

المحسن وتقوّم المسيء أمراً يرحب به الشرع ويؤيده، لما وراءه من جلب المصالح ودرء المفاسد.

وأكبر الخطأ أن تظن الدولة، أو يظن بعض الموالين لها: أنّ الحقّ معها وحدها والصواب دائماً في جانبها، وأنّ من خالفها فهو على خطأ، بل على باطل.

ولقد رأينا المعتزلة حين استقلوا بالحكم، وانفردوا بالسلطان في عهد الخليفة المأمون ابن الرشيد، وفي عهدي الواثق والمعتصم من بعده، أرادوا أن يفرضوا رأيهم على الكافة، وأن يمحوا الرأي الآخر من خريطة الفكر، وقاوموا بالسّوط والسيف رأي الفئات الأخرى، التي لا ترى رأيهم في القضية الكبرى التي أثاروها والمعروفة في تاريخ العقيدة باسم قضية «خلق القرآن».

وكانت محنة عنيفة شديدة العنف، أوذي فيها رجال كبار، وأئمة عظام على رأسهم الإمام التقي الورع أحمد بن حنبل.

وسجَّل التاريخ على القوم الذين زعموا أنهم أهل العقل وأحرار الفكر، هذه الجريمة المخزية التي يندى لها الجبين، وهي: جريمة اضطهاد المعارضين في الرأي، إلى حدّ السجن والضرب والتعذيب، ولو كانوا من كبار العلماء.

تعدّد الأحزاب كتعدد المذاهب في الفقه

وعندما نجيز مبدأ التعدّد الحزبي داخل الدولة الإسلاميّة، فليس معناه أن تتعدّد الأحزاب والتجمعات بتعدد أشخاص معينين، يختلفون على أغراض ذاتيّة، أو مصالح شخصيّة، فهذا حزب فلان، وذاك حزب علاّن، وآخر حزب هيان بن بيان. جمعوا الناس على ذواتهم، وأداروهم في أفلاكهم.

ومثل ذلك التعدّد المبني على أساس عنصري، أو إقليمي، أو طبقي، أو غير ذلك من إفرازات العصبيّة، التي يبرأ منها الإسلام.

إنما التعدّد المشروع هو تعدد الأفكار والمناهج والسياسات يطرحها كل فريق مؤيدة بالحجج والأسانيد فيناصرها من يؤمن بها، ولا يرى الإصلاح إلاّ من خلالها.

وتعدّد الأحزاب في مجال السياسة أشبه شيء بتعدّد المذاهب في مجال الفقه.

إنّ المذهب الفقهي هو مدرسة فكريّة لها أصولها الخاصّة في فهم الشريعة، والاستنباط من أدلتها التفصيليّة في ضوئها، وأتباع المذهب هم في الأصل تلاميذ في هذه المدرسة يؤمنون بانها أدنى إلى الصواب من غيرها، وأهدى سبيلاً، فهم أشبه بحزب فكري التقى أصحابه على هذه الأصول، ونصروها بحكم اعتقادهم أنها أرجح وأولى، وإن كان ذلك لا يعني بطلان ما عداها.

ومثل ذلك الحزب: أنه مذهب في السياسة، له فلسفته وأصوله ومناهجه المستمدة أساساً من الإسلام الرّحب، وأعضاء الحزب أشبه بأتباع المذهب الفقهي، كل يؤدي ما يراه أولى بالصواب، وأحقّ بالترجيح.

قد تلتقي مجموعة من الناس على أنّ الشّورى ملزمة، وأنّ الخليفة أو رئيس الدولة ينتخب انتخاباً عاماً، وأنّ مدّة رئاسته محددة ثمّ يعاد انتخابه مرة أخرى، وأنّ أهل الشّورى هم الذين يرضاهم الناس عن طريق الانتخاب، وأنّ للمرأة حقّ الانتخاب وحقّ الترشيح للمجلس، وأنّ للدولة حقّ التدخّل لتسعير السلع، وإيجار الأرض والعقار وأجور العاملين وأرباح التجّار، وأنّ الأرض تستغل بطريق المزارعة لا بطريق المؤاجرة، وأنّ في المال حقوقاً سوى الزكاة، وأنّ الأصل في العلاقات الخارجيّة السلم، وأنّ أهل الذمة يعفون من الجزية إذا أدّوا الخدمة العسكريّة وهي مايقابل الزكاة التي تؤخذ من المسلم.. إلخ.

وقد تلتقي مجموعة أخرى من «المحافظين» يعارضون أولئك «المجددين» أو أدعياء التجديد في نظرهم، فيرون الشّورى معلمة لا ملزمة، وأنّ رئيس الدولة

يختاره أهل الحلّ والعقد، ويختار مدى الحياة، وأن الانتخاب ليس وسيلة شرعيّة، والمرأة ليس لها حقّ الترشيح ولا حقّ التصويت، وأنّ الاقتصاد ، والملكيّة مطلقة، وأنّ الأصل في العلاقات الخارجيّة هو الحرب، وأنّ الخليفة أو الرئيس هو صاحب الحقّ في إعلان الحرب أو قبول السلم، وغير ذلك من الأفكار والمفاهيم التي تشمل الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والعسكريّة والثقافية وغيرها.

وقد توجد مجموعة أخرى لا هي مع هؤلاء ولا مع أولئك، بل توافق هؤلاء في أشياء وأولئك في أشياء.

فإذا انتصرت فئة من هذه الفئات، وأصبحت مقاليد السّلطة بيدها، فهل تلغي الفئات الأخرى من الوجود، وتهيل على أفكارها التراب، لمجرد أنها صاحبة السلطان؟

هل الاستيلاء على السّلطة هو الذي يعطي الأفكار حقّ البقاء؟ والحرمان من السّلطة يقضي عليها بالفناء؟

إنّ النظر الصحيح يقول: لا، فمن حقّ كل فكرة أن تعبِّر عن نفسها مادار معها اعتبار وجيه يسندها، ولها أنصار يؤيدونها.

أمّا ما ننكره في ميدان السياسة فهو ما ننكره في ميدان الفقه: التقليد الغبي والعصبيّة العمياء، وإضفاء القداسة على بعض الزعامات كأنهم أنبياء، وهذا هو منبع الوبال والخبال.

التعدّد والاختلاف

ومن الشبهات التي أثيرت هنا: أنّ مبدأ «التعدد» أو «التعدّدية» - كما هو المصطلح السائد – يتنافى مع الوحدة التي يفرضها الإسلام، ويعتبرها صنو الإيمان كما يعتبر الاختلاف أو التفرق أخاً للكفر والجاهلية.

وقد قال تعالى: (واعتصموا بحبْل الله جميعا ولا تفرقوا) (آل عمران / ١٠٣) وقال: (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم) (آل عمران/ ١٠٥).

وفي الحديث: «لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا».

وأود أن أنبّه هنا الى حقيقة مهمّة، وهي أنّ التعدّد لا يعني بالضرورة التفرق، كما أنّ بعض الاختلاف ليس ممقوتا، مثل الاختلاف في الرأي نتيجة الاختلاف في الاجتهاد؛ ولهذا اختلف الصحابة في مسائل فرعية كثيرة، ولم يضرهم ذلك شيئاً.. بل اختلفوا في عصر النبي(ص) في بعض القضايا مثل اختلافهم في صلاة العصر في طريقهم إلى بني قريظة.. وهي قضية مشهورة، ولم يوجِّه الرسول الكريم لوماً إلى أيٍّ من الفريقين المختلفين.

وقد اعتبر بعضهم هذا النوع من الاختلاف من باب الرّحمة التي وسَّع بها على الأمّة، وفيها ورد الأثر «اختلاف أمتي رحمة»، وفيه ألف كتاب «رحمة الأمّة باختلاف الأئمة».

ونقلوا عن الخليفة عمر بن عبد العزيز أنه لم يكن يود أن الصحابة لم يختلفوا؛ لأنّ اختلافهم فتح باب السّعة والمرونة واليسر للامة، بتعدد المشارب وتنوع المنازع.

وبعضهم جعل اختلاف الرّحمة يتمثل في اختلاف الناس في علومهم وصناعاتهم، وبذلك تسد الثغرات وتلبى الحاجات المتعدّدة والمتنوعة للجماعات.

والقرآن يعتبر اختلاف الألسنة والألوان آية من آيات الله تعالى في خلقه، يعقلها العالمون منهم: (ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف السنتكم وألوانكم إنّ في ذلك لآيات للعالمين) (الروم/ ٢٢).

فليس كل الاختلاف شرّاً، بل الاختلاف قسمان: اختلاف تنوع، واختلاف تضاد، والأول محمود، والآخر مذموم[٥].

تسامحنا وتسامحهم!

هذه هي التعدديّة السياسية، الإسلام يقر التعدديّة بكل ألوانها وصورها، ويعلّم المسلمين: أنّ الحياة تتسع للمخالف، ولابدّ أن يُربَّى الناس على هذه الحقيقة، أن يسع بعضهم بعضاً، ويقبل بعضهم بعضاً، وتتسع صدورهم لمخالفيهم في العقيدة أو في الفكر، أو في اللون، أو في اللسان، أو في العرق، أو في الثقافة، يجب أن يُربى الناس على هذه الحقيقة.

ولذلك نستغرب أنّ أوروبا التي تقول: إنها أم الديمقراطيّة وأم الحريّة تحاول أن تضغط على بعض مواطنيها حتى يفقدوا شخصيتهم الدينيّة، وحريتهم الدينيّة، وتفرض ذلك عليهم الأغلبية بقرار منها، ومعنى ذلك: أن تصبح الأكثريّة دكتاتوريّة مسلّطة تفرض رأيها على الأقليّة، وتذيبها بالقوة، ولا تبقى لها أي شخصيّة دينيّة أو ثقافيّة.

لقد كان الإسلام أعرق منهم في إقامة التعدّدية بكل ألوانها وصنوفها.

ولهذا عاش الناس في بلاد المسلمين يعرف بعضهم حقوق بعض، ويتسع بعضهم لبعض، ويتفاهم بعضهم مع بعض، ويتعاون بعضهم مع بعض، بقيت المساجد والكنائس، في كثير من الأحيان متجاورة، يسمع الناس آذان المؤذن، ويسمعون دقّات النواقيس في بلاد الإسلام، لم يضق صدر المسلمين بهذا، بل بقوا متفاهمين متعاونين، وهذا هو الدّين السمح، الدين صاحب الأفق الواسع الرّحب، دين الإسلام، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لفهم هذا الدين، وحسن الالتزام به، وحسن الدعوة إليه، إنه سميع قريب مجيب.

الهوامش:

١ - رواه أحمد (٥٧٠/٦) والطبراني (٤٧٤٩) عن أبي سعيد الخدري، ورواه البيهقي في (الشّعب) (٥١٣٧) عن جرير بن عبدالله .

٢ -رواه الترمذي (١٤٨٦) وقال: حسن صحيح، وأبو داود (٢٨٤٥)، والنسائي (٤٣٨٠)، وابن ماجة (٣٢٠٥) عن عبدالله بن مغفل.

٣ - رواه البخاري (١٣١٣) ومسلم (٩٦١) عن سهل بن حنيف وقيس بن سعد .

٤ - متفق عليه، عن ابن عمر.

٥ - انظر في ذلك: كتابي «الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم» عن دار الوفاق.